تفسير البغوي

لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

قوله عز وجل : (لقد تاب الله على النبي) الآية ، تاب الله أي : تجاوز وصفح . ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه . وقيل : افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم ، فذكره معهم ، كقوله تعالى : " فأن الله خمسه وللرسول " (الأنفال - 41) ، ونحوه . (والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أي : في وقت العسرة ، ولم يرد ساعة بعينها ، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، والجيش يسمى جيش العسرة . والعسرة الشدة ، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظهر والزاد والماء .قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه ، يركب الرجل ساعة ، ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير ، وكان النفر منهم يخرجون ، ما معهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك

حتى يأتي على آخرهم ، ولا يبقى من التمرة إلا النواة ، فمضوا مع رسول االله صلى االله عليه وسلم إلى تبوك على صدقهم ويقينهم .وقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع النبي صلى االله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول االله إن االله قد عودك في الدعاء خيرا فادع االله لنا . قال : " أتحب ذلك؟ " قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت ، فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر . (من بعد ما كاد يزيغ) قرأ حمزة وحفص : " يزيغ " بالياء لقوله : " كاد " ولم يقل : كادت . وقرأ الآخرون بالتاء . والزيغ : الميل ، أي : من بعد ما كاد تميل ، (قلوب فريق منهم) أي : قلوب بعضهم ، ولم يرد الميل عن الدين ، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف للشدة التي عليهم . قال الكلبي : هم ناس بالتخلف ثم لحقوه .(ثم تاب عليهم) فإن قيل : كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية : (لقد تاب االله على النبي) ؟قيل : ذكر التوبة في أول

الآية قبل ذكر الذنب ، وهو محض الفضل من االله عز وجل ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة ، والمراد منه قبولها .(إنه بهم رءوف رحيم) قال ابن عباس : من تاب االله عليه لم يعذبه أبدا .قوله عز وجل : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي خلفوا عن غزوة تبوك . وقيل : خلفوا أي : أرجئ أمرهم ، عن توبة أبي لبابة وأصحابه ، وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك الشاعر ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، كلهم من الأنصار .أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ، أخبرنا أحمد بن عبد االله النعيمي ، أخبرنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن بن عبد االله بن كعب بن مالك أن عبد االله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول االله صلى االله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت عن غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول االله صلى االله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع االله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول االله صلى االله عليه وسلم ليلة

العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واالله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول االله صلى االله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول االله صلى االله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول االله صلى االله عليه وسلم كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من االله ، وغزا رسول االله صلى االله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فتجهز رسول االله صلى االله عليه وسلم والمسلمون . معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئا ، وأقول في نفسي : أنا قادر عليه إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بي الأمر حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول االله صلى االله عليه وسلم والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئا . فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم

، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول االله صلى االله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر االله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول االله صلى االله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب؟ " فقال رجل من بني سلمة : يا رسول االله حبسه برداه ونظره في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، واالله يا رسول االله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول االله صلى االله عليه وسلم .قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول االله صلى االله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول االله صلى االله عليه وسلم قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ،

ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول االله صلى االله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى االله ، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : " ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ " فقلت : بلى يا رسول االله ، إني واالله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكني واالله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن االله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ، إني لأرجو فيه عفو االله ، لا واالله ما كان لي من عذر ، واالله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي االله فيك .فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : واالله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول االله صلى االله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول االله صلى االله عليه وسلم ، فواالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت

أن أرجع وأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .قال : ونهى رسول االله صلى االله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول االله صلى االله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فواالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك باالله هل تعلمني أحب االله

ورسوله؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته فقال : االله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار .قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له نحوي ، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فقرأته فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك االله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأته : وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت به التنور فسجرته .حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول االله صلى االله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول االله صلى االله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال : لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي االله في هذا الأمر .قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول االله صلى االله عليه وسلم فقالت : يا رسول االله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال : " لا ولكن لا يقربك " ، قالت : إنه واالله ما به حركة إلى شيء ، واالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه

هذا .قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول االله صلى االله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . فقلت : واالله لا أستأذن فيها رسول االله صلى االله عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول لي رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول االله صلى االله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر االله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت الله ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج ، وآذن رسول االله صلى االله عليه وسلم بتوبة االله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلي فرسا وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه ، ووااللهِ ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول االله صلى االله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا

يهنئونني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة االله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول االله صلى االله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد االله يهرول حتى صافحني وهنأني ، واالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة .قال كعب : فلما سلمت على رسول االله صلى االله عليه وسلم قال رسول االله صلى االله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " ! قال قلت : أمن عندك يا رسول االله أم من عند االله؟ قال : لا بل من عند االله ، وكان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول االله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى االله وإلى رسوله ، قال رسول االله صلى االله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر .فقلت : يا رسول االله إنما نجاني االله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فواالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه االله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول االله صلى االله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول االله صلى االله عليه وسلم إلى يومي

هذا كذبا ، وإني لأرجو أن يحفظني االله فيما بقيت . وأنزل االله على رسوله : (لقد تاب االله على النبي والمهاجرين والأنصار) إلى قوله : (وكونوا مع الصادقين) .وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب ، قال : نهى رسول االله صلى االله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي ، فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر ، وما من شيء أهم إلي من أن أموت ولا يصلي علي رسول االله صلى االله عليه وسلم ، أو يموت رسول االله صلى االله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي! وأنزل االله توبتنا على نبيه صلى االله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول االله صلى االله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، معينة في أمري ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " يا أم سلمة تيب على كعب " قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال : إذا يحطمكم الناس ، فيمنعونكم النوم سائر الليلة ، حتى إذا صلى صلى االله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة االله علينا .